بسم الله الرحمن الرحيم

٤٦ — سورة الأحقاف

قال المهايميّ : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العذاب فيه ، كالدليل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كالدلائل على أنفسها . ثم فى قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة المرجوّ مخوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال مخوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهى مكية . واستثنى بعضهم منها (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ...)[1] الآيتين . وقوله[2]: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ...) الآية . (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ...)[3] الأربع الآيات . (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ...)[4] الآية ، فهى مدنية ـ كذا قيل . وتقدم فى طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] .
(٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .
(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .
(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

[٣] (مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ)

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ » أى : من هول ذلك اليوم « مُعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ، ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه فى شىء أرضىّ بالاستقلال ، أو شىء سماوىّ بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ » تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلىّ ، بعد تبكيتهم بالتعجيز

عن الإتيان بسند عقلىّ . أى : ائتونى بكتاب إلهىّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ » أى : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » أى : فى دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقلىّ ، أو سلطان نقلىّ . وحيث لم يقم عليها شىء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ)

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ » أى : دعاءه لعجزه عنها « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ » أى : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخّرون مشغولون بأحوالهم . و (الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : فى قوله (إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المغيّا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه ـ والله أعلم ـ أنها من الغايات المشعرة بأن مابعدها ، وإن وافق ماقبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت مابينهما ، كالشىء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة ، لا تزيد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التى فى القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

فى سورة الزخرف فى قوله[1] (بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ)

« وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُوا۟ » أى : آلهتهم « لَهُمْ أَعْدَآءً » أى : لتبرّئهم منهم . قال الشهاب : أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضارّ . «وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ» قال ابن جرير[2] :أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا ، بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا ، تبرّأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصدًا إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهواؤهم .

وقال القاشانىّ : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانىّ . وكذا استعباد الموالى لخدمهم . فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ، ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله[3] (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى (كَانُوا۟) فى الموضعين ، للعابدين ، لئلا يلزم التفكيك . وفيه نظر : لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفرًا ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية[1] (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيهِمْ ضِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ » أى : بادهوه بالجحود أول ما سمعوه ، من غير إحالة فكر ، ولا إعمال روية . واللام فى (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُواْ) ، وعدّى الكفر باللام ، حملًا على نقيضه ، وهو الإيمان ، فإنه يعدى بها نحو[2] (أَنُؤْمِنُ لَكَ)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ، قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

« أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا » أى: لاتقدرون أن تدفعوا عنى سوءاً ، إن أصابنى به. و (أم) ـ على ما قالوا ـ منقطعة مقدرة بـ (بل) الإضرابية وهمزة الاستفهام ، المتجوز به عن الإنكار والتعجيب. ووجه كون الافتراء أشنع من السحر ، حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد معرفته من السمات المرغوبة .

---

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

وقال الناصر : هذا الإضراب فى بابه مثل الغاية التى قدمتها آنفاً فى بابها ، فإنه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفى والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون فى حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهد لى بالصدق بما يؤيدنى به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » أى : لمن راجع منكم الكفر وتاب وآمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التى أرسلها إلى خلقه. قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم ، فلِمَ تستنكرون بعثتى ، وتستبعدون رسالتى ، كقوله [١] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير [٢] : ومن البدع قول عدىّ بن زيد [٣] :

فَلَا أَنَا بِدْعٌ من حَوَادِثَ تَعْتَرِى رجالًا عَرَتْ من بَعْدِ بُؤْسَىٰ وَأَسْعُدِ

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من المجمهرة ومطلعها :

أتعرفُ رسمَ الدارِ من أم مَعْبَدٍ نَعَمْ . وَرَمَاكَ الشوقُ قبل التجلُّدِ

تعترى : أى تتعلق . عرت : أى علقت . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص [١] :

فَخَرَتْ فَانْتَمَتْ فقلتُ : ذَرِينِي ... لَيْسَ جهلٌ أُتِيتِهِ ببـــديعِ

« وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أىّ شىء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدّر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدرى ما يصير إليه أمرى ، وأمركم فى الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة . والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ، دون ما سيقع فى الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحى الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ماعول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو ﷺ جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما فى الدنيا ، فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشركى قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذى رواه الإمام [٢] أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت

---

(١) كان الأحوص يوما عند سُكَينة . فأذّن مؤذّن . فلما قال (أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله) فخرت سكينة بما سمعت . فقال الأحوص :

فخرت فانْتَمَتْ . . . .

فأنا ابن الذى حمت لحمَهُ الدَّبْـ ... ـرُ ، قتيلِ اللَّحْيَانِ يوم الرجيعِ

غَسَّلت خالَ الملائكة الأبْـ ... ـرار ميتا طُوبَى له من صريعِ

قال أبو زيد : وقد ، لعمرى نفخر بفخر ، لو على غير سكينة ، نفخر به ! وبأبى سكينة ﷺ ، حمتْ أباهُ الدَّبْرُ ، وغسلت خالَه الملائكة .

(الأغانى ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

النبيّ ﷺ ، قالت : (طار لنا فى السكنى، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فمرضناه . حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ. فقلت: رحمة الله عليك،أبا السائب! شهادتى عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أماهو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير. والله! ما أدرى ـ وأنا رسول الله ـ ما يفعل بى! قالت: فقلت : والله ! لاأزكى أحداً بعده أبداً وأحزننى ذلك. فنمت ، فرأيت لعثمان رضى الله عنه عيناً تجرى، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخارىّ[1] دون مسلم ، وفى لفظ له : ما أدرى ـ وأنا رسول الله ﷺ ـ ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزننى ذلك . وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة ، إلا الذى نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والد جابر) والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضى الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايمىّ : (وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ) أى : فيما لم يوح إلىّ . والوحى ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقى . ولم يكن لى أن أضمّ إلى الوحى كذباً من عندى .

« إِنْ أَتَّبِعُ » أى: فى تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى منذر عقاب الله على كفركم به، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى مافيه صلاحكم وسعادتكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣ـ باب الدخول على الميّت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه ، حديث رقم ٦٦٦ .

«قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ » أى :القرآن منزلًا من لدنه،علىّ .لاسحراًولامفترى كما تزعمون «وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أى :من الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة «عَلَىٰ مِثْلِهِۦ »أى مثل القرآن، وهو مافى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى[1] (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ) وقوله[2] (إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ *صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ) أو على مثل ماذكرمن كونه من عندالله تعالى.أوعلى مثل شهادة القرآن، فجعل شهادته على أنه من عندالله، شهادة على مثل شهادة القرآن، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله، أو (المثل) صلة و (الفاء) فى قوله تعالى « فَـَٔامَنَ » للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن، لما علم أنه من جنس الوحى الناطق بالحق « وَٱسْتَكْبَرْتُمْ » أى: عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

وقوله : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » استئناف مشعر بأن كفرهم، لضلالهم المسبب عن ظلمهم . ودليل على الجواب المحذوف . مثل : (ألستم ظالمين) أو (فمن أضل منكم) وذلك عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله فى الآية الأخرى[3] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ) .

قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم، فإن تركه تعالى لهدايتهم، لظلمهم.

تنبيه :

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشىّ ، لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله[4] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ) . ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلًا ، فلا ضير فى شهادة الشاهد

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٦] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩] .
(٣) [٤١ / فصلت / ٥٢] . (٤) [٧ / الأعراف / ٤٨] .

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها. هذا ما حققوه. ويقرب مما نذكره كثيرًا من المرادمن سبب النزولفى مثل هذا، وأنه استشهادعلى مايتناوله اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم فى التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ » أى : الإيمان، أو ما أتى به الرسول «خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ » أى: لوكان من عندالله لكنا أولى به، كسائرالخيرات من المال والجاه.

قال ابن كثير: يعنون بلالًا وعمارًا وصهيباً وخباباً رضى الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيّناً ، كما قال تعالى[1] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ) أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا[2] (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ) وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم : هو بدعة . لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. انتهى. «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ »أى: بالقرآن«فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ» أى : كذب قديم، كما قالوا (أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) . قال ابن كثير: فيتنقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال[3] رسول الله ﷺ : بطر الحق وغمط الناس .

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البرّ والصلة ، ٦١ ـ باب ماجاء فى الكبر =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ)

« وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً » أى : قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . « وَهَٰذَا » أى الذى يقولون فيه ما يقولون « كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ » أى : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه « لِّسَانًا عَرَبِيًّا » أى : بيّناً واضحاً . وفى تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . « لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[١٤] (أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ » أى : لا غيره . « ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ » أى : على العمل الصالح . قال القاضى : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى منتهى العمل . و (ثُمَّ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ » أى : من هول يوم القيامة « وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر . « أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » .

= ونصه : عن عبد الله ، عن النبىّ ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . ولا يدخل النار (يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبنى أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجمال . ولكن الكبر مَنْ بَطَرَ الحقَّ وغَمَصَ الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ، إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا » وقرئ (حُسْنًا) وهـذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما فى الإيمان المذكور ، فى قوله[1] تعالى (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ...) الآية .

« حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْه ، أو حملًا ذا كُرْهٍ ، وهو المشقة . « وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ » أى : حمله جنيناً فى بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمعاناة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأم مزيد العناية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقى ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأنا نقول : إن الحولين أَمَدُ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبىء عنه قوله[2] تعالى (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون فى الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الكسور ، جرياً على عرفهم فى ذلك ، كما ذكروه فى حديث أنس فى وفاته ﷺ على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفى عن ثلاث وستين ، كما بين فى شرح الشمائل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفى به فيما سيق له الكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

قال ابن كثير : وقد استدل علىٌّ رضى الله عنه بهذه الآية مع التى فى لقمان[1] (وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ) وقوله تبارك وتعالى[2] (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوىّ صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم .

«حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ» أى : استحكم قوته وعقله «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ» أى : ألهمنى «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ» أى : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . «وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ» أى : واجعل الصلاح سارياً فى ذريتى ، راسخاً فيهم «إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ» أى : من ذنوبى التى سلفت منى «وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» أى: المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ)

«أُو۟لَٰٓئِكَ» أى الموصوفون بالتوبة والاستقامة «ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟» أى : من الصالحات فنجازيهم عليها «وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ» أى : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم «فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ» أى : معدودين فى زمرتهم ثواباً ومقاماً .

قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل[3] (وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ) ليدل على المبالغة بعلوّ منزلتهم فيها ، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم) . ولم يبيّنوه هٰهنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال (فِى) بمعنى (مع) . انتهى .

---

(١) [٣١/ لقمان / لقمان / ١٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .
(٣) [١٢ / يوسف / ٢٠] .

« وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعدَ الحق فى الدنيا ، وهو موفيه لهم فى الآخرة ، كما قال[1] (وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ) .

ثم بيّن تعالى نعت من عصى ما وصَّى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاقّ كافر ، وما له فى مآله ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ » أى حين دَعَواه إلى الإيمان والاستقامة « أُفٍّ لَّكُمَآ » أى : من هذه الدعوة « أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبرى بعد فنائى « وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستعظامه ، كأنهما لجآ إلى الله فى دفعه ، كما يقال (العياذ بالله) ! أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيْلَكَ ءَامِنْ » أى : صدّق بوعد الله ، وأقرّ أنك مبعوث بعد موتك . و (وَيْلَكَ) فى الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعلٍ أو تركٍ ، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ماهو فيه ، وأخذ ما ينجعه « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى لخلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، ورادًّا عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله « مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التى كتبوها .

(١) [٥٢ / الطور / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ)

« أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ » أى : الإلهىّ ، وهو العذاب « فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ » أى : ببيعهم الهدى بالضلال ، والباقى بالفانى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَلِكُلٍّ » أى من الفريقين « دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيىء « وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جزاءها « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى ابنٍ لأبى بكر الصديق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّىّ قال : نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، قال لأبويه ـ وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعدُ ، فحسن إسلامه ـ فنزلت توبته فى هذه الآية (وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟) .

قال الحافظ ابن حجر: لكن نفىُ عائشة أن تكون نزلت فى عبدالرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول. وذلك مارواه البخارىّ[1] والإسماعيلىّ والنسائىّ وأبويعلى ؛ أن مروان

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ١ ـ باب والذى قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملًا على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيدَ ، ودعا إلى بيعته وقال: إن الله أرى أمير المؤمنين فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه، فقد استخلف أبو بكر وعمر. فقال عبد الرحمن: ماهى إلاهرقلية! فقال مروان : سنة أبى بكر وعمر . فقال عبد الرحمن: هرقلية! إن أبا بكر، والله ! ماجعلهافى أحد من ولده، ولا فى أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه. فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ) فقالت عائشةمن وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروانُ فى صلبه .

ومما يؤيده أن (ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ) هم المخلدون فى النار فى علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. وحاول بعضهمعدم التنافى بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه، ثم يسلم بعد ذلك. ومعلوم أن الإسلام يجبّ ما قبله، وأن معنى الوعيد فى الآية إنما هو للمصرّين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد فى العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد فى أول البعثة آيات لاتحصى ، وكلها تنعى على من كان مشركاً آنئذ ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أنَّ فيها ما يحط من أقدارهم، ويجعلها مغمزًا لهم، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنغمة يطرب لها الجهلة ، وقالةٍ يلوكها الرعاع ، وهم الذين يهمه أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن! فقد شفى الغلة، وصدع بالحق ، فى حين أن لاظهير له ولا نصير ـ والله أعلم ـ .

قال ابن قتيبة فى (المعارف) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ فى نسق : أبو قحافة، وابنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن .

وقال أيضاً: قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش، ويكنى أبا محمد، وله عقب بالمدينة،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبلٍ يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفى دمشق فى مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبى بكر، نسب إليه زورًا. وما أكثر المزوّرات فى المزارات ، كما يعلمه من دقّق فى الوَفَيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أى يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أى فما بقى لكم من اللذائذ شىء لاستيفائكم إياها « فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ » أى الهوان « بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أى بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ » أى عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ » يعنى هودًا « إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع. قال قتادة : ذكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن ، أهل رمل، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ » أى : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ » أى لا تشركوا مع الله شيئاً

فى عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

«قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا» أى لتصرفنا «عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى من العذاب على عبادتنا إياها « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » أى فى وعدك أنه آت لا محالة . « قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً، فلا أعلم وقت مجيئه، لأن العلم بوقته عنده تعالى، فيأتيكم به فى وقته الذى قدره له «وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » . قال الطبرىّ[1] : أى مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

فرأوه عارضاً فى ناحية من نواحى السماء، متجهاً نحو مزارعهم « قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ » أى سحاب عارض « مُّمْطِرُنَا » أى بغيث نحيا به « بَلْ هُوَ » أى قال هود بل هو « مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ » أى من العذاب « رِيحٌ » أى هى ريح . أو بدل من (ما) ، « فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ » أى تهلك « كُلَّ شَىْءٍ » أى من أموالهم وأنفسهم « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أى إذنه الذى لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلهتهم ، بل دمّرتهم « فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ » أى بيوتهم .

ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شاكلتهم من أهل مكة وغيرها ، بقوله « كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين إذا تمادوا فى غيهم ، وطغوا على ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ) أى مكنا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال ، وقوة الأجسام ، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا . على أنّ (إن) نافية ، أُوثرت على (ما) لئلا توجب شبه التكرير الثقيل. وقيل (إن) شرطية محذوفة الجواب. والتقدير: ولقد مكناهم فى الذى ، أو فى شىء ، إن مكنا كم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هى صلة كما فى قوله[1] .

يرجّى المرء ما إنْ لَا يَرَاهُ ... ويَعْرِضُ دونَ أَدْنَاهُ الخطوبُ

---

(١) البيت من شواهد الكشاف ، قاله إياس بن الأرتّ . وقبله .

فإنْ أُمْسِكْ فإن العيشَ حُلْوٌ ... إلىّ كأنه عَسَلٌ مَشُوبُ =

قال الزمخشرىّ : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه فى غير آية فى القرآن[١] (هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا)[٢] (كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا) وهو أبلغ فى التوبيخ ، وأدخل فى الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى[٣] (وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّـهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)وقوله[٤] (مَـكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ) أى: والأصل توافق المعانى فى الآى الواردة فى نبأ واحد، على مافيه أيضاً من سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً » قال الطبرىّ[٥] : أى جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ، «فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ» أى لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، بل فى خلافه « إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّـهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى من العذاب .

قال الطبرى[٦] : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم: فاحذروا أن

= وبعده :

وما يدرى الحريصُ علامَ يلقى شَراشِرَهُ ، أيخطىء أم يصيبُ

ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطماعه إلى الأمور المغيبة التى لا يراها ، ويعترض الموت عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولا ، الأمورُ الشديدة التى تقطع رجاءه ، فما ظنك بأبعد الأشياء ؟ ! .

(١) [١٩ / مريم / ٧٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٢] .
(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٤) [٦ الأنعام / ٦] .
(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الساس والعشرين(طبعة الحلبىّ الثانية).
(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله ، وتكذيبكم رسله ، ماحلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل النقمة.

لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع فى النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ، وتعددت مدركات غيره ، ولأنه فى الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم » أى ما حول قريتكم يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أى كحجر ثمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أى وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم ضروباً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الكفر بالله ورسله . قال الطبرىّ : وفى الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة على كفرهم ، والتمادى على غيهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصرهم منا ناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » أى : فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أوثانهم التى اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم عند ربهم ، كما قالوا(١) (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) .

(١) [١٠ / يونس / ١٨] .

« بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم، وامتنع أن يستمدوا بهم، امتناع الاستمداد بالضالّ فى (ضَلُّواْ) استعارة تبعية « وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ » أى ضياع آلهتهم عنهم، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة . « وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » أى وإثر افترائهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)

[٣٠] (قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٣١] (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٣٢] (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ، أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ » أى أملفاهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك « يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ » أى ليتم التدبر والتفكر « فَلَمَّا قُضِىَ » أى فرغ من قراءته ، كمل تأثرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْاْ » أى رجعوا « إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فُضّل عليها إذ « يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ » أى معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير: أى يهدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال. فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى[1] (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال تعالى[2] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ) فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن: يهدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

« يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ » أى رسول الله محمدًا إلى مايدعوكم إليه من طاعة الله، « وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بمعجزٍ ربَّه، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته، لأنه فى قبضته وسلطانه، أنّى اتجه . « وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ » أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . « أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول ـ روى الإمام مسلم[3] عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِراءَ . قال : فقلنا : يارسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطَلَقَ بنا ، فأرانا آثارهم .

وروى الإمام أحمد[4] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحى،

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٣٣] .

(٣) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٤٨٢ (طبعة المعارف) .

فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشراً . فيكون ما سمعوا حقًّا ، وما زادوا باطلًا . وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رُمى بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبثّ جنوده ، فإذا بالنبىّ ﷺ يصلّى بين جبلى نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هـذا الحدث الذى حدث فى الأرض . ورواه الترمذىّ [1] والنسائىّ فى كتابى التفسير من سننيهما . وهكذا قال الحسن البصرىّ : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظىّ قصة خروج النبىّ ﷺ إلى الطائف، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعته الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولـكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضى الله عنهما المذكور . وخروجُه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبىّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه[2] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ . . .) الآية . قال ابن كثير: فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا : قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

فأما ما رواه البخاريّ ومسلم [١] جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً : من آذن النبيّ ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثني أبوك ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ـ أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقيّ : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم . ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ـ كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ـ .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبيّ ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقيّ . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى ـ والله أعلم ـ كما روى ابن أبي حاتم في تفسير (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجن نصيبين . وتأوّل البيهقي قوله (فبتنا بشرّ ليلة) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعْدٍ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ ـ باب ذكر الجن وقول الله تعالى: قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .
وأخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

وبالجملة ، فقد روى مايدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولًا من وجه جيّد عند ابن جرير[1] فى هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم ، فهذا يدلّ على أنه قد روى القصتين. وذكر أبو حمزة الثمالىّ أن هذا الحىّ من الجن كانوا أكثر الجن عددًا ، وأشرفهم نسباً . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . ويروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدلّ على ذلك مارواه البخارىّ[2] فى صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشىء قط يقول : إنى لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . علىّ الرجلَ . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً فى السوق ، جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا . ثم نادى : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . فقمت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبىّ ـ هذا سياق البخارىّ ـ وقد رواه البيهقىّ من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ ـ باب إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدلّ على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ـ والله أعلم ـ .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقىّ : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينما نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب. قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببدء إسلامك كيف كان . قال سواد : فإنى كنت نازلا بالهند ، وكان لى رَئِىٌّ من الجن . قال ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا جاءنى فى منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤىّ بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبتُ للجنّ وتَحْسَاسِهَا ... وشَدِّها العيسَ بأَحْلَاسِهَا
تَهوِى إلى مكةَ تبغى الهُدَى ... ما خيرُ الجنِّ كَأَنْجَاسِهَا
فانهَضْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشمٍ ... واسمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهنى فأفزعنى وقال : ياسواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبيًّا ، فانهض إليه تهتدِ وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتانى فأنبهنى ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبتُ للجن وتَطْلَابِهَا ... وشَدِّها العيسَ بأَقْتَابِهَا
تَهوِى إلى مكة تبغى الهدى ... وليسَ قُدْمَاهَا كَأَذْنَابِهَا
فانهض إلى الصَّفْوَةِ من هاشم ... واسمُ بعينيك إلى قَابِهَا

فلما كان فى الليلة الثالثة ، أتانى فأنبهنى ، ثم قال :

عجبتُ للجن وتَخْبَارِهَا ... وشدِّها العيسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ليس ذَوُو الشَّرِّ كَأَخْيَارِهَا
فانْهَضْ إلى الصَّفوةِ من هاشم ... ما مُؤْمِنُو الجنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ،وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلى ، فشددته على راحلتى ، فما حللت نسعة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآنى النبىّ ﷺ قال : مرحباً بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يارسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه منى ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد ، فقلت :

أَتَانِى رَئِيِّى بعد لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ ... ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبِ

ثلاثَ ليالٍ ، قولُه كلَّ ليلة : ... أتاكَ رسول من لُؤَىّ بْنِ غالبِ

فشمَّرْتُ عن ساقى الإزارَ ووَسَّطَتْ ... بى الدِّعْلِبُ الوجناء بين السباسب

فأشهد أن الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأنك مأمونٌ على كل غائب

وأنك أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله ، ياابن الأكرمين الأطايب

فمرنا بما يأتيك ياخير مُرْسَلٍ ... وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذَّوائِبِ

وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة ... سواكَ بمُغْنٍ عن سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

قال : فضحك النبىّ ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لى : أفلحت ياسواد ! فقال له عمر رضى الله عنه : هل يأتيك رئيّك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتنى ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن. ثم أسنده البيهقىّ من وجهين آخرين. انتهى[1] كلام ابن كثير.

وقد ساقه الإمام الماوردىّ فى (أعلام النبوة) مع نظائر له ، فى الباب السادس عشر ، فى هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخبارَ آحاد ، عمن لايرى شخصه ، ولا يحج قوله، فخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره فى النفوس بشير، وقد قبلها السامعون. وقبولُ الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة ١٩٣٧) .

جاز أن تكون دليلًا على صحة الكهانة ، فعنه جوابان :

أحدهما : أن دلائل النبوة غيرها ، وإنما هى من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثانى : أن الكهانة عن مغيّب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثانى :

قال الماوردىّ : فى صرف الجن المذكور فى قوله تعالى[1] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) وجهان :

أحدهما ـ أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث فى السماء ، إلا لحادث فى الأرض ، وتخيلوا به تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ ببطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلى الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلى ويقتدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضى الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون (إلى) فى (إليك) بمعنى لام التعليل . وذُكر فى (المغنى) أنها تأتى مرادفة اللام ، نحو[2] (والأمر إليكِ) . وفيه تكلف وبُعدٌ ، لنبوّه عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردىّ : وحكى عكرمة أن السورة التى كان يقرؤها[3] (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) .

أقول : سيأتى مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردىّ :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٣] . (٣) [٩٦ / العلق / ١] .

والوجه الثانى ـ أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبىّ الله ببطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : فخط علىّ خطًّا وقال : لا تجاوزه .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه. وعلى الوجه الثانى، أعلمه جبريل قبل إتيانهم. واختلف أهل العلم فى رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يرهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن .

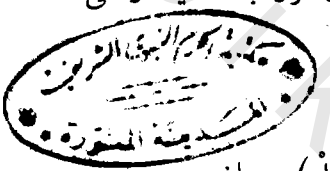

أقول : تقدم لابن كثير مافيه كفاية ـ .

ثم قال الماوردىّ : وفى قوله[1] (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ) وجهان :

أحدهما ـ فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثانى : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماع قوله . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا ـ أى قولهم أنصتوا ـ أدب منهم . وقد روى البيهقىّ عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالى أراكم سكوتاً ؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم ردا . ماقرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا: ولا بشىء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد. ورواه الترمذىّ[2] وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث ـ دل قوله تعالى[3] (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان عامّ الرسالة إلى الإنس والجن .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٥٥ ـ سورة الرحمن، باب حدثنا عبد الرحمن ابن واقد . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣١] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهى سورة الرحمن ، ولهذا قال (أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ).

قال الماوردىّ: لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولًا من الإنس، واختلفوا فى جواز بعثة رسول منهم، فجوّز قوم لقول الله تعالى[1] (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ومنع آخرون منه. وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس، وحملوا قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) على الذين لما سمعوا القرآن ، ولّوْا إلى قومهم منذرين . انتهى .

أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلًا فى آية[2] (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ) .

الرابع ـ استدل بقوله (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .

قال الماوردىّ : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا فى دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم. فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم، يدخلون الجنة. وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

والحق ـ كما قال ابن كثير ـ أن مؤمنهم كمؤمن الإنس ، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل[3] (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ) وفى هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا[4] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] .
(٢) [٣٦ / يس / ١٤] .
(٣) [٥٥ / الرحمن / ٥٦و٧٤] .
(٤) [٥٥ / ٤٦و٤٧] .

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فقد امتنّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولىّ أبلغ من الإنس، فقالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم. وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على عموم ذلك قوله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار. فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه[2] (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى)ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة. فعن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون فى ربضها وحولها وفى أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس ـ قيل : سر التبعيض فى قوله (مِّن ذُنُوبِكُمْ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربىّ لو نهب الأموال المصونة، وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه، جبّ الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال.

---

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٤] .

ويقال : إنه ماوعدُ المغفرة للكافر على تقدير الإيمان فى كتاب الله تعالى إلا مبعضة، والسر فيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاؤه كما فى حق المؤمن ـ أفاده الناصر ـ .

السادس ـ قال ابن كثير: جمعوا فى دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجع فى كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع ـ قال الماوردىّ : الجن من العالم الناطق المميز، يأكلون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تخيلوه من آثارهم الخفية .

وقال القاشانىّ :الجن نفوس أرضية تجسدت فى أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر، سماها حكماء الفرس (الصور المعلقة) . ولكونها أرضية متجسدة فى أبدان عنصرية، ومشاركتها الإنس فى ذلك ، سميا (ثقلين) . وكما أمكن الناسَ التهدّى بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع، وأوضح من أن يقبل التأويل. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ » أى بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كهيأتهم قبل وفاتهم .

وفى ابن جرير[1] بحث نحوىّ فى دخول الباء فى (بِقَادِرٍ) بديعٌ . ويذكر فى مباحث زيادة الباء ، فى مطولات العربية .

« بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى من إعادة المعدوم ، ولو فنى الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ، قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

[٣٥] (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ، بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا» أى الإحياء إحياء « بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَٱصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم ـ فى اللغة ـ كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشىء والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون، المجدّون، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) بيانية لا تبعيضية، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلابد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها ـ أنهم جميع الرسل . والثانى ـ أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث ـ أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزمِ نوحٌ والخليلُ الممجَّدُ وموسَى وعيسَى والنبيُّ محمـدُ

والرابع ـ أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس ـ أنهم سبعة بزيادة آدم . والسادس ـ أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد يزاد وينقص .

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام فى دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحمى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو لملك جبار فى عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كنمروذ إبراهيم ، وجالوت داود ، وفرعون موسى . ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكالابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره ـ أفاده الشهاب ـ .

« وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ » أى ولا تستعجل بمساءلتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أو فى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً » مِّن نَّهَارٍ » أى لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلَٰغٌ » قال ابن جرير[1] : فيه وجهان :

أحدهما ـ أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف (ذلك لبث) ، وهى مرادة فى الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر ـ أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار الهايمىّ إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلَكُ » أن يعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة « إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .